القيم الروحية والاخلاقية في الشعر العباسي ـ نماذج مختارة ـ

Spiritual and moral values in the Alabasi era, selected models

م. د. بشير علي حميد العبيدي

ديوان الوقف السني

Instr. Basheer Ali Hameed (Ph.D.)

Iraqi Sunni Affairs

basheer.ail.hamied@gamil.com 07711434994

ملخص البحث:

يقف هذا البحث عند نماذج شعرية مختارة من الشعر العباسي ، وتعد من أهم القيم الروحية والاخلاقية التي مثلت جوانب إبداعية مهمة تمثلت بالنصح والارشاد والتوجيه والزهد وغير ذلك، وقد جاءت وهي تبعث في النفوس النقاء وتحثها على الاختيار الأمثل والافضل من خلال عدد من الصور الفنية الشعرية التي تدل على الثبات والعزيمة والتجدد بصور منتزعة من رحم المجتمع ليكون شعراً متضمناً صوراً فنية تدل على الإجادة والابتكار ، وقد جاء تقسيم البحث على مبحثين ، تمثل المبحث الأول: بـ شعر النصيحة والارشاد ، بينما مثل المبحث الثاني : شعر الزهد والتصوف، وقد توصل البحث إلى جملة بسيطة وواضحة من النتائج التي اثبتناها في خاتمة البحث .

Abstract

This research is about selected poetic patterns from the Abbasid poetry. The selected patterns are considered one of the most important spiritual and moral values that represented important creative aspects represented by advice and guidance etc... They came to inspire purity in souls urging these souls to choose the optimal and the best through a number of poetic artistic images that indicate stability, determination and renewal with images extracted from the womb of society to be poetry containing artistic images indicating seriousness and innovation, and the research division came in the two sections representing The first topic: the poetry of advice and guidance, while the second topic: the poetry of asceticism and mysticism. The research reached a simple and clear sentence from the results that we proved in the conclusion of the research.

مدخل:

يعد شعر التوجيه والارشاد من أهم الآثار الأدبية التي تعبر عن العلاقات الاجتماعِيَّة غير الرسمِيَّة ، وهذه الآثار الأدبية لها مميزاتها هو أنّها لم تأتِ عبثًا ولم تكن حشو كلام، إنّما هي وسيلة من وسائل الشّعراء يبدون من خلالها آراءهم، ويبثّون أفكارهم براهين ساطعة تُخاطب العقل على شكل ومضات سريعة تحدث رعشة شعورِيَّة أو هزّة نفسِيَّة للتأثير في المتلقي بالاتجاه الّذي يتوخاه الشاعر حين يستدعي هذه الحالة إلى الوجود، فيكون الغرض الّذي يُريده هو استخلاص فكرة وعرضها[1]، وإنَّ هذه الومضات شيء طريف تمثّل إشارات سريعة، ولأنَّ "للعربي ذكاء من نوع خاص يعتمد على اللمحة، ومن ثم كانت لفتة بما هي صورة لهذا النوع والعقلية تشيع في الإشارة السريعة التي يتركز فيها الكثير من المعنى"[2].

وإنَّ هذه الأنماط الشعرِيَّة تقف في صَفٍّ واحِدٍ مع الدّين لغرس الفضيلة واجتثاث الرذيلة وتقويم الخلق ابتغاء لسعادة الإنسان "لأنَّ غرض الأخلاق هو العمل على إيجاد التوازن في جوانب الشّخصِيَّة الإنسانِيَّة وتوجيهها نحو تحسين نفسها إلى أقصى ما تسمح به المقدّرات الإنسانِيَّة، وبذلك يصبح المثل الخلقي الأعلى هو الحياة السليمة المنتجة المؤدّية إلى ترقية الفردِيَّة الإنسانِيَّة، وبالتالي إلى ترقية البيئة الاجتماعِيَّة"[3].

من مميزات هذا الشعر أنَّه "مهيئ للجمع بين عنصرين أساسيين في تركيبه، عنصر العقل (الفكر) وعنصر القلب (العاطفة) لترجمة تلك التأمّلات"[4] ،وإنَّه من خلاله "تصل صورة الكلام إلى الغاية القصوى في البلاغة، من حيث إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن البيان، ولطف الإشارة، وصدق التجربة، فترتاح النفوس لها، وتنشط لحفظها، ويسير مؤنتها وسهولة الاحتجاج

(1)ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب: 321.
(2) الأسس الجماليّة في النّقد الأدبي: 335.
(3) مبادئ الأخلاق: 175.
(4)الحكمة في الشعر العربي قبل الإسلام: 36 (رسالة).

بها، ولأنَّها تورث ما تخلله من الكلام رواجًا وتُكسبه قبولاً"[5]، وهذا يؤسّس لعلاقات متواشجة بين المبدع والمتلقي، لأنَّ طول التجارب وممارسة الأحداث والخلوص منها بنتيجة من النتائج يرضي عنها الناس ويقبلونها في أنفسهم وعرفوا أحداث الحياة الاجتماعِيَّة وتقلّباتها وتصرّفها بالبشر، وإنَّ هذه الأنماط سيعرضها البحث بدراسة وصفِيَّة تحليلِيَّة تتضمن مبحثين:

المبحث الأول:

1. شعر النّصيحة:

النّصيحة مبدأ إنساني يقوم على تفعيل التّوجيهِ والإرشادِ، وذلك من خلال إسداءِ المشورة المخلصة بالرأي السّديدِ الَّذِي ينبغي من ورائه التّنبيه على الاحتراز من الوقوع في الخطأ والزّلل، والسَّير وراء الأهواءِ الَّتِي توهِمُ بِأَنَّهُ صالح لا غِشَّ فيه[6]، وهذا الشّعر جاء نتيجة للمواقف المتراكمة الَّتِي أنتجتها الحياةُ الاجتِمَاعِيَّةُ وأصبَحَ أثرًا من آثارِهَا البارزة الَّتِي تفضي حالة من التّوجيهِ الَّتِي تجعلُ المتلقّي يُحِسُّ بصدقِ وفاعِلِيَّةِ هذه المشورة، وتبعده من الوقوع بالزّلل والهفوة، وخير دليل على ذلك ما نجده في نَصّ يوسف بن نفيس ابن أبي الفضل المرلي الَّذِي يقدّم فيه النّصيحة، إذ يقول:

إن تَغتَرِرْ بِأَخٍ يَخُنكَ وَإِنْ تَشِمْ

بَرقًا يَضِنُّ وَإِنْ تَقُلْ لَمْ يَقبَلِ

فَاقنَعْ بِرِزقِكَ وَاطَّرِحْ هذا الوَرَى

فَلَعَلَّ حَظَّكَ لَيلُهُ أَن يَنجَلِي[7]

(5)الوسيط في الأدب العربي وتاريخه: 15.

(6)ينظر: الإخوانِيَّات في شعر العصر العبّاسي الأوّل: 119 (رسالة).

(7) قلائد الجمان: 8/ 306.

تضمن النص الشعري نوعًا من النّصيحةِ الَّتِي تكتنفها الحيطة والحذر من الوقوع في الخطأ، وهذه النّصيحة متأتِّية من مواقف تراكُمِيَّة تُنتجها تجارب تُلقي بأسفارِها على الحياةِ الاجتِمَاعِيَّةِ، والّتي تجعل المُبدِعَ يوجّهُ نصائح ذات قيمةٍ اجتِمَاعِيَّةٍ، يُفاد منها في التّعامل مع تلك المواقف.

وشعر النّصيحة بكُلِّ الأشكالِ الَّتِي يَرِدُ فيها هو "ما أنشأه الشّعراءُ من قصائِدَ أو مقطوعات تهدف إلى توجيه الآخرين نحو الأفضل حسب رؤية الشَّاعِرِ ومنطلقاته الدّينِيَّة والاجتِمَاعِيَّة وتجربته الشَّخصِيَّة"[8] الَّتِي يُريدُ أن ينقُلَها إلى المُخاطَبِ، لأنَّ فيها قيمة إنسَانِيَّة لها أثرها في الإرشاد والإصلاح.

ينهض شعر النّصيحَةِ كأحد صور شعر التّوجيهِ والإرشادِ على مجموعة من الشّروطِ، والّتي منها أنَّهُ لا بُدَّ أن يكونَ بعيدًا عن الخشونة والتّجريح، بحيث لا يُحِسُّ المتلقّي أو المخاطب بالإغراء والتّنفير[9]، ومثال ذلك ما نجده في نَصّ محمد بن سعيد بن يحيى، أبي المعالي الدُّبيثي الواسطي (ت637هـ)، وقد قدَّمَ نصيحَةً لِيّنَةَ الجانبِ بعيدة عن الخشونَةِ، إذ يقول:

عَلَيكَ بِحُسنِ الصَّبرِ فِي كُلِّ حَالَةٍ

وَإن كَانَ طَعمُ الصَّبرِ فِي حَملِهِ صَبرَا

فَلَن يَعدِمَ الإنسَانُ نَيلَ مُرَامِهِ

إذا قَطَعَ الأَيَّامَ مُستَعمِلاً صَبرَا

وَعَدِّ عَنْ الأطمَاعِ وَاقنَع بِدُونِهَا

فَكَم أَهلَكَتْ حِرصًا وَكَم قَتَلَت صَبرَا[10]

(8)القصيدة الأندلسِيَّة في القرن الثّامن: 1/ 487.
(9) ينظر: الأخلاق والسّير في مداواة النّفوسِ: 48.
(10)قلائد الجمان: 6/ 89.

إنَّ القيمَةَ الإنسَانِيَّةَ والاجتِمَاعِيَّةَ الَّتِي زَخَرَ بها النَّصُّ بوساطة النُّصحِ لها أثرٌ كبيرٌ في التّوجيهِ، والإرشادِ، والإصلاحِ الَّذِي هو الدّعاءُ لما فيه خيرٌ وصوابٌ والنّهيُ عمَّا يُفسِدُ الأخلاقَ[11] وذلك بالاعتمادِ على ترويض النّفسِ بالصّبرِ والابتعادِ عن البُخلِ، فهذه كُلُّها نصائِحُ أطلقها الشَّاعِرُ للمُتلقّي من غير تنفيرٍ أو تجريحٍ، ليُساعِدَهُ في قضاءِ واجباتِهِ الاجتِمَاعِيَّةِ والحياتِيَّةِ.

ومن شروطِ النّصيحَةِ ان تكون سِرًّا لا جهرًا وبتعريض وإيماء لا بتصريح، فإذا تعدَّت النَّصيحَةُ هذه الوجوه أصبحت من الظّلمِ بعيدَةً عن الطّاعةِ والأمانةِ والتّوجيهِ[12]، وخير مثال على هذه الشّروطِ ما نجده في نَصِّ يحيى بن محمد بن عبد الله، أبي زكرِيَّا الكناري (ت631هـ)، إذ يقولُ:

تَجَنَّبْ بِسِرِّكَ أَهلَ الصَّفَا

عَلَى كُلِّ حَالٍ وَأهلَ الكَدَرْ

فَإن أَنتَ أَخبَرتَ بِالسِّرِّ عَنكَ

أَضَعتَ الصَّوَابَ وَشَاعَ الخَبَرْ

عَلَى السِّرِّ مِنكَ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

فَبَاشِرْ بِسِرِّكَ غَيرَ البَشَرْ

فَمَا السِّرُّ إِلَّا كَنَفعِ اللَّبِيبِ

فَمَن فَارَقَ النَّفعَ لَاقَى الضَّرَرْ[13]

(11)ينظر: التّعريفات: 361.

(12)ينظر: الأخلاق والسّير في مداواة النّفوسِ: 44.

(13) قلائد الجمان: 8/ 51.

إنَّ النّصيحَةَ المخبوءة تحت عباءة الحيطة والحذر تُحيلُ إلى دلالات متلازمة الواحدة تلو الأخرى، منها عدم افتِضَاحِ السِّرِّ والحفاظ عليه، لأنَّ البوح به له نتائج وخيمة، وهي ضياع الصّوابِ والضَّرر الَّذِي يُحيط بصاحِبِهِ، وهذه كُلُّها أبعادٌ اجتِمَاعِيَّةٌ ناتجةٌ عن تجارب الحياة اليَومِيَّةِ، صاغها الشاعر بقالب تعبيري يبتغي منه إيصال فكرة للمتلقّي، تجعله يُحِسُّ بحجم المسؤولِيَّة والخطر الَّذِي يحيقُ به، ومحاولة تجنّبه وعدم الوقوع فيه.

أمَّا أَهَمُّ الخصائص والسّمات الَّتِي انماز بها شعر النّصيحة هو أنَّهُ يُقوّمُ العلاقات والقيم الاجتِمَاعِيَّة القائمة على المعاشرة بين أبناءِ المجتمع، وذلك بالتّوجيهِ بالقول والفعل، ولا يُشترطُ في النّصح القبول، لكن النّاصح يؤدّي ما عليه من واجب اجتماعي في النّصيحة وبذل المعروف الَّذِي يسدُّ النَّقصَ في النَّاسِ ويُرسِّخُ الصّواب[14]، ومن أمثلة خصائص النّصائح الَّتِي تقوّمُ العلاقاتِ وتبرز القيم الاجتِمَاعِيَّة نلمحه في نَصِّ محمد بن الحسن بن محمد المعروف بابن الكريم، والّذي يدعو فيه إلى النّصيحة في اغتنامِ الفرصةِ والظّفر بها من خلال قوله:

إِذَا فُرصَةٌ لاحَتْ فَخُذْهَا وَلا تَكُنْ

بِمُعتَذِرٍ عَن أَخذِهَا بِسَبِيلِ

وَلا تَرجُهَا إِن أَمكَنَتكَ إلى غَدٍ

فَمَنْ لِغَدٍ مِن حَادِثاتٍ بِكَفِيلِ[15]

يدعو الشَّاعِرُ في النَّصِّ إلى نصيحَةٍ صَادقةٍ تبعث على روحِ الهِمَّةِ والإقدامِ في الإسراعِ بتحصيلِ الفرصِ وعدم التّراخي والتّأخير فيها مع الرّغبةِ الَّتِي يُطلقُها الشَّاعِرُ للمُتلقّي ليجعله ينسحبُ لها بكونها واجبًا اجتماعيًّا قائمًا على بذل المعروف الَّذِي يستفيد منه في تعاملاته مع الحياة الاجتِمَاعِيَّة وحوادثها المختلفة.

(14)ينظر: الأخلاق والسّير في مداواة النّفوسِ: 42.

(15)قلائد الجمان: 5/ 331.

ومن الخصائص الَّتِي يُبنى عليها شعر النّصيحة هو الإخلاص القائم على "بذل المجهود في النّصحِ، والتّناهي في رعاية ما بين النّاسِ من حَقٍّ، فليس في ذلك إفراط وإن تناهى، ولا مجاوزة حَدٍّ وإن كثر وأوفى، فتستوي حالتهما في المغيبِ والمشهدِ، ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى، فإنَّ فضل المشهد على المغيب لؤم، وفضل المغيب على المشهد كرم، واستواؤهما حفاظ"(16) ، وخير مثال عن ذلك نجده في نَصّ عبد الله بن أحمد بن محمد قدامة أبي محمد المقدسي الَّذِي يُقدّمه من خلاله نصيحة انمازت بعدم الإفراط وتساوى فيها المشهد بالمغيب، إذ يقول:

لا تَسألِ النَّاسَ وَأسأَل رَازِقَ النَّاسِ

فَاليَأسُ مِنهُم غِنًى فَاستَغنِ بِاليَأسِ

وَاستَرزِقِ اللهَ فِي خَزَائِنِهِ

فَإِنَّ رَبَّكَ ذُو فَضلٍ عَلَى النَّاسِ

فَلَيسَ لِلنَّاسِ أنْ يُعطُوكَ خَردَلَةً

وَلا يُعِيذُوكَ مِن فَقرٍ وإفلاسِ(17)

إنَّ النَّصيحَةَ في هذا النَّصّ تُجَسّدُ لونًا من ألوانِ العلاقاتِ الاجتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يرسم من خلالها صورة من صور الارتباطِ الاجتماعي الَّتِي تُفضي إلى تقديم المشورةِ الصّائبة والرأي السّديد الَّذِي يجعل المتلقّي يتعامل مع المواقف الحياتِيَّةِ بصورة عقلانِيَّةٍ، ولا سيما فيما يخُصُّ أمور الرّزقِ والكسب الحلال الَّذِي يسعى الإنسان لتحصيله بعد التّوكُّلِ على الله، ويُقدّمُ النّصحَ بأنَّ النّاسَ لن يرزقوهُ حتّى بقدر قليل، فأصبح المشهد والمغيب في التّحصيل متساويين.

ومن الخصائص الَّتِي انفرد بها شعر النّصيحَةِ هي انتشار الصفة التّعليمِيَّة في شَتَّى أشكاله بما يحوله إلى شعر توجيه وإرشادٍ يسعى الشَّاعِرُ بوساطته إلى توجيه المتلقي إلى السّلوكِ القويمِ في

(16)أدب الدّنيا والدّين: 178.

(17) قلائد الجمان: 2/ 193.

مواجهتِهِ لكثير من الأمورِ الَّتِي لها علاقة وطيدة بالحياة الاجتِمَاعِيَّةِ محاولاً فيها رسم الطّريق الصّحيح لتلك العلاقاتِ الاجتِمَاعِيَّةِ[18]، وخير مثال عن هذه الخصيصة نجدها في نَصِّ علي بن محمود بن عيسى التّنوخي الحمصي المعروف بابن الحكم، ومن ذلك قوله:

دَعْ ذَا النَّمِيمَةِ لا تُصَاحِبْهُ وَكُنْ

مِن كَيدِهِ مُتَخَوِّفًا مُتَعَوِّذَا

فَمَتَى تُسَالِمْهُ تُسَالِمُ عَقرَبًا

وَمَتَى تُحَارِبْهُ تُحَارِبُ قُنفِذَا[19]

إنَّ المحمولات الدلالِيَّة الَّتِي تُفصِحُ عنها النّصيحة في هذا النَّصِّ تُحيلُ على صفة التّعليمِيَّة الَّتِي تُعَدُّ الخُطوة الأولى من خطوات التّوجيه والإرشاد والّتي يسعى منها بالابتعاد عن صاحب النّميمة وعدم مُصاحبته، لأنَّهُ يحمل صفات ذميمة غير قويمة أبرزها النّفاق وذكر الآخرين بسوء، ثُمَّ يشرع الشَّاعِرُ بإضفاء مجموعة من الأوصاف عليه، فهو كالعقرب والقنفذ، وهي صفات تُحيل على الاذى الَّذِي سيصدر منه، فلا بُدَّ من المُبادرة بتجاوز هذه الأشكال.

المبحث الثاني:

2. شعر الزهد والتصوف:

الزُّهدُ في الدُّنيا هو راحة القلب والبدن، لأنَّ الرّغبة في الدُّنيا تورث الهَمَّ والحزن، لذلك عُدَّ الزّهدُ من عبادات القلوب الَّتِي يتقرّبُ بها المؤمنون إلى الله بغية رضاه، لذلك أصبحَ للزّهدِ ركائز يستند عليها بوساطة "بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك"[20] ، ومن أهم البواعث الرئيسة لظهور هذا النّمط هو انشغال

(18)ينظر: الشّعر في واسط في العصر العبّاسي: 96 (رسالة).

(19) قلائد الجمان: 4/ 56.

(20)التعريفات: 84.

النّاسِ بالدُّنيا حتّى أصبَحَتْ همّهم وشُغلهم، لذلك خصَّصَ شُعراء قلائد الجُمانِ جُزءًا يسيرًا من شعرهم لبيان حقيقتها، فنجدهم في هذا الغرض مرّةً يعضون، ومرّة أخرى يُحذّرون الإنسان من مغريات الدّنيا والمصير المحتوم الَّذِي يُجسّده هاجس الموت وحقيقة الفناء، ومما لا شَكَّ فيه أنَّ التّطوّر الاجتماعي الَّذِي حدث في هذا العصرِ كان له الأثر الكامن في نشوء هذه الموضوعات الشِّعرِيَّة وتطوّرها، فشيوع تيّار اللّهو والمجون ووجود بون واضح بين الطّبقاتِ الاجتِمَاعِيَّةِ في ذلكَ العصرِ، كان لا بُدَّ من وجود حركة عكسِيَّة تتبنّاها طائفة تعكف على تقوى الله، وتقصر نفسها على العبادة وتحتقر المال والدّنيا وخدمتها[21]، وما سيعرضه البحث في هذا الجانب هو أهم مظاهر شعر الزّهد وأهم المعاني والأهداف الَّتِي يدور حولها ووظائف هذا الشّعر وأشكاله ومميزاته.

ومن مظاهر الحياة الاجتِمَاعِيَّة بكل ما تحمله من مضامين هو أثرها في شعر الزّهد، إذ إنَّ بعض الشّعراء يُطلق لنفسه العنان مدّة من الزّمن سرح اللّهو، حيث أمكنه أن يُسمّيه حتّى إذا أشبع غرائزه وعواطفه ورأى تفاهة ما هو فيه انثنى تائبًا زاهدًا ليُطهّر نفسه من أدرانها ويُعيد إليها كرامتها بعد أن هانت ويشتط في ذلك ويُبالغ مُتأثّرًا بأجواء دينِيَّة وفكرِيَّة وروحِيَّة حتّى يصل إلى درجة الزّهدِ[22]، وخير مثال عن ذلك نجده في قول محمد بن سليمان بن قتلمش البغدادي:

إِلَهِي يَا كَرِيمَ العَفوِ غَفرًا

لِمَا أَسلَفتُهُ زَمَنَ الشَّبَابِ

فَقَد سَوَّدتُ بالآثَامِ وَجهِي

ذَلِيلًا خَاضِعًا لَكَ فِي التُّرَابِ

فَبَيِّضهُ بِحُسنِ العَفوِ عَنِّي

وَسَامِحنِي وَخَفِّف فِي حِسَابِي

(21)ينظر: الحركة الأدبِيَّة في مجالس هارون الرّشيد: 174.

(22) ينظر: المرأة في أدب العصر العبّاسي: 326.

فَقَد أمسَيتُ مِسكِينًا فَقِيرًا

إلى مَلِكٍ غَنِيٍّ عَن عَذَابِي(23)

إنَّ الزُّهدَ في النَّصّ بما يحمله من مضامين دنيوِيَّة وأخروِيَّة كان له دور فاعل في إذكاءِ العاطفة ونقل تجربة الزّهدِ بصدق مؤثّرٍ في المتلقّي، بحيث تجعله يُحِسُّ بحالة من الفناء المطبق على هاجسه وكأنّه هو صاحب التّجربة وهذا مُتأتٍّ عن قوّة الخطابِ التأثيري الَّذِي أفرزه الشَّاعِرُ من خلال نَصّهِ.

ونلحظ في نَصّ محمد بن أحمد بن جبير، أبي الحسين الكناني البلنسي (ت615هـ) دعوة إلى الزّهدِ من الأدران فيقول:

أَقصُرُ عَنِ الغَيّ كَم ذَا

تُدعَى لِرُشدٍ وَتَابَى

لا يسلَمُ العَبدُ إلاَّ

إنِ استَقَامَ وَتَابَا(24)

ينهض النَّصُّ ببنيته الأمرِيَّة الَّتِي تحثُّ على ترك الضلالِ والغيّ والسّلوك في مسالك الرّشدِ والتوبة الَّتِي يُدعى الإنسان إليها في أكثر من حين وزمن، إلا أنَّ نفسه الَّتِي تُغالبه تكون حائلاً بينه وبين ذلك الرّشد ليستمرَّ تحت وطأة الغي نتيجة عناده وبُعدِهِ عن نور الحقّ والحقيقة، وعلى هذا الأساس يُطلق الشَّاعِرُ دعوته في الزّهدِ لبيان حاله الَّذِي لا يستوي، إلا أن يستقيم، لأنَّ العناد والغي يوديان بصاحبهما إلى مسالك الرّدى في الدّنيا والآخرة.

(23) ينظر: المرأة في أدب العصر العبّاسي: 326.

(24) ينظر: المرأة في أدب العصر العبّاسي: 326.

وقول المبارك بن أحمد بن المبارك الإربلي اللّخمي (ت637هـ) الَّذِي يُصوّرُ فيه حاله طالبًا المغفرة من الله تعالى:

يَا رَبِّ أنتَ اللهُ حِلمُكَ صَافِحٌ

عَن كُلِّ جَانٍ عُذرهُ مُتَعَذِّرُ

إنِّي وَإن كَبُرَتْ ذُنُوبِي مَطمَعِي

في حُسنِ عَفوِكَ إنَّ عَفوَكَ أَكبَرُ[25]

في هذا النَّصِّ الزُّهدي يسلك الشّاعرُ حالاً من المناجاة مع ربّهِ يلتمس حلمه العظيم الَّذِي يُريد به أن يتجاوز عنه ما بدر منه من زلل وخطأ متوسّلاً باسم من أسماءِ الله تعالى الحليم الَّذِي هو منبع الصّفحِ والعفو عن كُلِّ جناية، إذ إنَّهُ يعرف بفداحة ما ارتكب وعظم ما أذنب، إلا أنَّهُ يطمع برحمة الله وعفوه، وفي عمق النَّصِّ تتجلّى إشراقات روحِيَّة من نفسٍ زهدت وأعرضت عن كُلِّ ما اقترفت وتركت كل ما زَلَّتِه من خطايا وذنوب، سالكة طريق الزّهدِ لمناجاة الله من استمطار الرّحمة والعفو، لتغسل حياتها الَّتِي كانت مدنّسةً بالذنوب، والنّصُّ موحٍ بحالة من التّذلّل والانكسار والافتقار النّابعة من كيان الشَّاعِرِ الَّذِي كادت أن تهزمه الخطايا وتقتل رجاءه، لولا أن زهد في دينه ودنياه وأحسن الظّنَّ باللهِ.

ولهذا الشّعر معانٍ يدور معظمها حول "الحياة والموت والحكمة والإعراض عن الدّنيا والعمل للآخرة والتّامّل في احوال الكون والبشر والاعتبار لها"[26] ، ومثال ذلك ما نلحظه في نَصِّ محمد بن الحسين بن محمد الإربلي، وهو من بيت دين وتصوّف، يقول:

يَومٌ يَمُرُّ وَيَومٌ بَعدَهُ يَأتِي

يُنَغِّصَانِ حَيَاتِي ثُمَّ لَذَّاتِي

(25) ينظر: المرأة في أدب العصر العبّاسي: 326.
(26)الحركة الأدبِيَّة في مجالس هارون الرّشيد: 176.

وَالنَّفسُ فِي دَعَةٍ مِمَّا يُرَادُ بِهَا

مَشغُولَةٌ بِأَمَانيٍّ وَفَرَحَاتِ

فَبَينَمَا المَوتُ إذ حَطَّت رَكَائِبُهُ

نَحوِي بِغَيرِ احتِشَامٍ أو تَحِيَّاتِ

وَقَالَ حَتَّى مَتَى تَرجُو البَقَاءَ بِهَا

أَمَا عَلِمتَ بِأَيَّامِي وَسَاعَاتِي

فَاستَنقِذِ الرُّوحَ ثُمَّ اسكنني

في قَعرِ لَحدٍ بِدَارٍ عِندَ أَموَاتِ

سَلاهُمُ الأَهلُ وَالأَحبَابُ كُلُّهُم

كَأَنَّ مَا عَرَّفُوهُم بَعضَ أَوقَاتِ[27]

إنَّ الزُّهدَ في الدُّنيا جعل الشَّاعِرَ يتّكئُ على ذكر أهمّ العناصرِ الدّافعة إليه وهو الموت الَّذِي لا يؤتمن في أي حال من الأحوال، لأنَّ سهامه لا يمنع منه أبواب ولا حرس ولا يصدّه بشيء، لذلك كانت الحقيقة الحتمِيَّة الَّتِي تُفضي إلى الإعراض عن هذه الدّنيا الفانية والعمل على الزّهدِ فيها، واغتنام أيَّامها بالعمل الصّالح والخير قبل أن يحط ذلك الفارس الهمام ركابه وهو الموت الَّذِي لا يُجامل ولا يرحم أحدًا.

أمَّا أهم الاغراض الَّتِي ينبعث عنها شعر الزّهد فهي القصد والاعتدال والكف عن المعصية وأمور الدّنيا، وما زاد عن الحاجة وكل ما يشغل عن الله [28]، ومثال ذلك ما نجده في نَصِّ محمد بن إبراهيم بن محمد، أبي جعفر الرّازي الفقيه المدرّس (ت615هـ)، وأوصى أن تُكتب على قبره:

(27)الحركة الأدبِيَّة في مجالس هارون الرّشيد: 176.

(28) ينظر: شعر الزّهد في القرنين الثّاني والثّالِث الهجريين: 27.

عَجِبْتُ لِمَن قَد جَاءَ يُحدَى بِمَالِهِ

وَلَم يَدَّخِرْ ذُخرًا جَمِيلًا لَهالَها

جَزِعتُ لِمَن وَارَيتُ عَنكَ وَلَو بَدَا

لِعَينِكَ مَا وَارَيتَ عَنهَا لَهالَها(29)

إنَّ قوّة زهد الشّاعر جعله يستهل نصّه بمفارقة الاندهاش والاستغراب المثير للتّعجُّبِ أو هذا التّعجُّب كان يقصد به إحداث المفارقة بين طرفين، طرف مخبر عنه غائب، وطرف آخر يتمثّل بالحالة الَّتِي عليها المخبر عنه الغائب في الدنيا، إذ كيف يمضي ويمر ولم يعد العدّة لرحلة سفره الطّويلة إلى عالم الملكوت الأخرى؟ وما ذاك إلا أنَّهُ كان مُنشغلاً لاهيًا لم يحسب لأمره الحساب حتّى قاده الأمر إلى حالة القنوط والجزع، لأنَّهُ كان محجوب الرّؤية عمّا كان ينبغي أن يراه، ولو أنَّهُ رأى ما حجب لتملكه حالة من الذّهول والهول، وقد اتّكأ الشَّاعِرُ متوسّلاً بتقانات بديعِيَّة طرّز بها نَصَّهُ، ففي البيت الأوّل قال لها لها، فلها الأولى ضمير مجرور متعلّق (بيدّخر) ولها الثانية هي اللّهو و(العبث) في الدّنيا، وفي البيت الثّاني (لها لها) من الهول، وهذا الضّرب من التّجنيس يُحدث ترابطًا نصِّيًّا يُفضي إلى قوّة سبك النَّصّ الَّذِي أراده الشَّاعِرُ حينما كتبه على شاهد قبره، ليكون موعظة يلتفت إليها كل من مرَّ وقرأ، يؤثرها في نفسه عبرة نابعة من تجربة حياة لها أثرٌ بالغٌ في إفضاء تلك الخلاصة لتلك التّجربة القاسية الَّتِي أراد تقديمها.

ومثال هذا الغرض أيضًا ما نجده في نَصِّ محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي، إذ يقول:

[الوافر]

أَرَاكَ مِنَ الحَيَاةِ عَلَى اغتِرَارِ

وَمَالَكَ بِالإِنَابَةِ مِن بِدَارِ

(29) قلائد الجمان: 5/ 91.

وَتَطمَعُ في البَقَاءِ وَكَيفَ تَبقَى؟

وَمَا الدُّنيَا لِسَاكِنِهَا بِدَار(30)

من النَّصِّ نلحظ أنَّ تجارب الحياة وآثارها تبقى شاخصة يلحظها المبدعون بآثار أدَبِيَّة يوجزون بها تلك التّجارب في نسق إبداعي يرتقي إلى مركزِيَّة التأثير، صوتًا داعيًا إلى الاعتبار ليُلغي أصوات الهامش نفسه التمثّلات الطّائشة، فالنَّصُّ هنا يشي باستدعاء واستحضار حكم ومضامين فكرِيَّة متعدِّدَة، فهنا خلاصة الحياة النّهائِيَّة، إذ يُخاطب الشَّاعِرُ ربَّما شخصًا أو ذاته لم يرعوا عن غيِّهما، وقد شَطَّ به اغتراره بهذه الحياة الفانية الَّتِي ليست بدار قرار داعيًا إلى الإنابة منها، فليس البقاء بمطمح أو مطمع، وقد وظّف الشَّاعِرُ تقانة التّجنيس ليُحدِثَ نوعًا من الترابط الإيقاعي والفنّي بين طيات النَّصِّ ومضامينه بقوله: (بدار) الأولى الَّتِي تعني المبادرة في الإنابة والرّجوع عن الغرور، و(بدار) الثّانية الَّتِي تعني الدّار الَّتِي تسكن مما يخلق فضاءً يتّسع للتأمّل في خضم هذه التّجربة الزّهدِيَّة الوعظِيَّة.

أمَّا أهم وظائف شعر الزّهدِ والوعظ أنَّهُ يصدر عن العقل الرّاجح المدرك المجرّب الَّذِي يسعى من خلاله إلى التّمسّك بعُرى الدّين والتّقوى، لذلك اتّخذه الشّعراء وسيلة لأداءِ مسؤولِيَّتهم بتوجيه أفكارهم ومنطلقاتهم إلى شعر نصائح وإرشادات ومواعظ عامّة إلى الشّعب والسّلطان، فأصبح الشّعر عندهم وظيفة تعليمِيَّة فعادوا به إلى وظيفته الأولى(31)، ومثال هذه الوظائف نجده في نَصِّ عمر بن عبد الله، أبي عبد الله التّكريتي، الَّذِي يسعى في نَصِّهِ الزّهدي إلى توجيه النّفوس إلى التّهذيب والتّقى فيقول:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَل أَدُلُّكُمُ

عَلَى فَعَالٍ يَفُوزُ مَن فَعَلَه

(30) قلائد الجمان: 5/ 91.

(31) قلائد الجمان: 5/ 91.

دَعُو فُضُولَ الكَلامِ كَم بَطَل

لِسَانُهُ بِالفُضُولِ قَد قَتَلَه

وَاقتَنِعُوا بِاليَسِيرِ وَاعتَبِرُوا

كَم جَامِعٍ لِلكَثِيرِ مَا أَكَلَه

وزيّنُوا بِالتُّقَى نُفُوسَكُمُ

فَذُو النُّهَى زَانَ بِالتُّقَى عَمَلَه(32)

إنَّ الوظيفة الكامنة الَّتِي يحملها النَّصُّ في الزّهدِ جعلت صوت الشَّاعِرِ وضميره ووجدانه يصدح بخطاب عامٍّ يُنَمّ عن تجربة روحِيَّة متفرّدَة، فيُخاطبُ النّاسَ موظِّفًا أسلوب الخطابِ القرآنِيّ، إذ يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَل أَدُلُّكُمُ) ويدعوهم إلى جملة من الخصال الَّتِي تضمن السّلامة في الدّنيا والسّعادة فيها، ومنها ترك الكلام وفضوله الَّذِي يُهلِكُ ولا يُنجي ويُبعد ولا يُقرّبُ ويكون مجلبة للشّرّ مبعدة للخير، وفي هذا دعوة إلى الإحجام عن فضول الكلام، لأنَّ غاية الزّهدِ هو الصّمت إلا عن الحق، مع دعوة إلى الاعتبار والقناعة، فما يحصل الكثير من المادّيَّاتِ بنافع صاحبه، ويختم نَصَّه بضرورة لزوم التّقوى الَّتِي هي من شرائط تمام العقل وزينته، وما هذا إلا نتيجة لما رأى الشَّاعِرُ في زمنه من طيشان النّاسِ وتسفيه عقولهم وإغراقهم في كل ما لا يمُتُّ إلى التّقوى بصلة، إذ كانت حياتهم الاجتِمَاعِيَّة الَّتِي عاشوها في زمنهم باعثًا ومؤثّرًا قويًّ في الخلوص إلى هذه النّتيجة، وهي إطلاق صيحات الزّهدِ والموعظة.

وقوله أيضًا في النّصّ الَّذِي عبّر من خلاله عن وظيفة الزّهدِ وهي الحذر من الموت وهفوات العمر:

أَيَا أبنَ الأَربَعِينَ تَرُومُ لَهوًا

(32) قلائد الجمان: 5/ 91.

وَأَنَّى اللَّهوُ بَعدَ الأَربَعِينَا

يَا ابنَ المَيِّتِينَ أَبًّا وَجَدًّا

سَتَلحَقُ فِي غَدٍ بِالمَيِّتِينَا

تُؤَمِّلُ أن تَعِيشَ قَرِيرَ عَينٍ

وَكَم قَد أَبكَتِ الدُّنيَا عُيُونَا

تَظُنُّ العَيشَ فِيهَا أن سَيَصفُو

وَكَم قَد أخلَفتَ فِيهَا الظُّنُونَا

زَوِّدْ مِن سِنِيِّكَ بِخَيرِ زَادٍ

وَلا تَغتَرَّ... السِّنينا(33)

يُقدّم الشَّاعِر في نَصِّهِ تجربةً زُهدِيَّةً واضحة المعالم مخاطبًا الإنسان بمراحله العمرِيَّة الَّتِي يمُرُّ بها والتي تنذره بعواقب، ولا سيما من ناهز الأربعين وما زال لاهيًا، إذ يستنكر عليه هذا الفعل مُذكِّرًا إيَّاهُ بماله، وهذه التّذكِرة تذكرة اعتبار بنهاية حتمِيَّة، ثمَّ يذكر بأنَّ العيش الهانئ غير مأمول، لأنَّ الدّنيا أبلت عيونًا كثيرة كانت تشرق بذلك الأمل، ثُمَّ يُلخِّصُ حقيقة العيش الَّذِي لا يصفو من الكدر ولا يستمر على حال، فهو محض ظنون أخلفتها الدّنيا، ثُمَّ يُردف كلامه بدعوة إلى التّزوّد بخير زاد مُستلهمًا هذا المعنى من النَّصّ القرآني الكريم ، وقد بدا واضِحًا الأثر الاجتماعي والدّيني لمجمل النَّصّ موحيًا بتجربة عميقة تمخّضت عن معاناة ملازمة لنفسِيَّة الشَّاعِرِ كابدها على مضض نتج عنها خلاصة تجربة حياة عبّر عنها بزهد ونصائح مكثّفة توسل بأساليب مباشرة، منها النّداء والإخبار والأمر، ليُضفي على النَّصّ قوّة فاعلة بالتأثير في نفس المتلقي لإظهار هيمنة الحياة الاجتِمَاعِيَّة الضَّاغطة على الشَّاعِرِ والمجتمع.

(33) قلائد الجمان: 4/ 214.

ومن الوظائف والأسس الَّتِي يرتكز عليها شعر الزّهد والموعظة هو أن لا تميل النّفس إلى الدّنيا ولا تنفر عنها، بل يكون وجودها وعدم وجودها سواء عنده بمثابة واحدة، لأنَّ ذلك يُفضي لحسن العاقبة، ومثال هذه الوظيفة والأسس ما نجده في نَصِّ نبأ ابن أبي غانم بن حسين المعروف بابن الزعفراني، من أهل حلب وزهّادها المعروفين، إذ يقول ما كتبه على مقبرة لبعض أصدقائه:

دُنيَاكَ فَانِيَةٌ فَاعمَل لآخِرَةٍ

تَبقَى فَيَومُكَ هَذَا مُنذِرٌ بِغَدِ

فَلا بَقَاءَ لِمَا يَفنَى مُرَكَّبُهُ

وَلا فَنَاءَ لِمَا يَبقَى عَلَى أَحَدِ

كَم قَصّرَ الأَجَلُ المَحتُومُ مِن أَمَلٍ

يَسِيرُهُ لَمْ يَنَلْ فِي أَطوَلِ المَدَدِ(34)

إنَّ المعاني والوظائف الزّهدِيَّة الَّتِي حملها النَّصُّ قائمة على التّذكير بالموت وتصوير أهوال يوم الحساب حين يقف المقصّرون في دين الله أمام ربّهم، وإنَّ الموت لا يُبقي على أحد وإن أمَدَّ الله له بالعمر، محاولاً رسم الطّريق الصّحيح لنفسه وللمتلقي من خلال التّوجيه إلى السّلوك الدّنيوي القويم في مواجهة الأمور الَّتِي لها علاقة وثيقة بالحياة الاجتِمَاعِيَّة، بما يضمن الغفران يوم القيامة، مع تنبيه الشَّاعِر على أنَّ الأيّامَ ترحل ولن تعود.

وقول عبد الرحمن بن محمد بن عبد السّميع، أبي طالب الواسطي (ت621هـ)، الَّذِي يُعبِّر فيه عن أنَّ ملذّات الدّنيا بوجودها وعدم وجودها سواء، وإن كانت موجودة فلا بُدَّ من البذل منها:

تَبًّا لِمَن هَمُّهُ الدُّنيَا وَبُغيَتُهُ

زِيَادَةُ المَالِ فِيهَا وَهُوَ مُنتَقَصُ

(34) قلا قلائد الجمان: 7/ 96.

يَسعَى وَيَدأَبُ فِيهَا لَيسَ يُدرِكُهُ

حِرصًا وَتَنتَابُهُ الأسقَامُ وَالغُصَصُ

كَم أَسعَفَ الدَّهرُ أَقوَامًا يَبغِيهُمُ

فِيهَا وَأَعطَى فَلَمَّا زَادَهُم نَقَصُوا

وَكُلَّمَا أَدرَكُوا مَا أَمَّلُوا بَطِرُوا

وَكُلَّمَا زِيدَ فِي أَموَالِهِم حَرَصُوا

رَأسُ الخَطِيئَةِ حُبُّ المَالِ فَاسخ بِهِ

وَاسمَح وَجُد فَذَوُو الأفضَالِ قَد خَلَصُوا

والبَاخِلونَ حَظُوا بِالذَّمِّ إِذ بَخِلُوا

وَقَتَّرُوا وَعَلَى أَعقَابِهِم نَكَصُوا

وَاحذَر مَصَارِعَهُم إِن كُنتَ مُتَّعِظًا

فَقَد أَتَتكَ بِهِ الأَنبَاءُ وَالقَصَصُ(35)

يشرع النَّصُّ بالإفصاحِ عن جُملة من المضامين الزُّهدِيَّةِ الواضِحَةِ على سبيل الإرشادِ والتّوجيه والوعظ، فيستهل النَّصّ بذم من كانت الدّنيا مبلغ همّه وغايته، ويسفر عن حكمة وعبرة مجملها أنَّ من كانت بغيته زيادة المال فإنَّهُ لا محال، وقد وظّفَ الشَّاعِر بنيّة التّضاد بين الزّيادة والنّقصان لإظهار بعض تناقضات الحياة الصّارخة وأثرها في المجتمع، كذلك أسفر النَّص بصوتٍ عالٍ ينبع من أعماق نفس زاهدة في بيان حال من يدأب ويحرص على إدراك ما ليس يُدركه بحرص نهايته وأوجاع وأسقام، ثُمَّ يعطف على بيان فعل الدّهر بأقوام نالوا ما نالوا إلا أنَّ ما نالوه لم يَدُمْ، إذ بلغ بهم البطر مبلغًا وزاد حرصهم على ما كسبوه بحقيقة الدّنيا حتّى صوّر الشَّاعِرُ أنَّ الخطيئة

(35) قلا قلائد الجمان: 7/ 96.

ذات رأس تتمثّل بحب وشرع يدعو إلى الجود والسّماح، لأنَّ وجوده وعدم وجوده سواء عند الشَّاعِرِ، وإنَّ من يبخل به ولا يجود فإنَّهُ لا يُحظى إلا بالذّمِ والنّكوص كما روت الأخبار والقصص، وتبدو التّجربة الزّهدِيَّة عابرة للأزمنة والأمكنة، فمما لخّصه الشَّاعِرُ وما خلص إليه بتجربته تلك تكاد تكون منهاج عمل لا يحاد عنه.

وأهم شيء ينماز به شعر الزّهد أنَّهُ نقيض لتيّار اللّهو والمجون الَّذِي شاع بين الطّبقات الاجتِمَاعِيَّة، وحدا بالشّعراء أن يُطلقوا منه دعوات الوعظ والصّلاح والتّذكير بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصّالحين من النّعيم والعاصين من النّار[36]، وخير دليل عن ذلك نجده في نَصِّ عمر بن عبد الله بن المفرّج بن درع أبي القاسم التّكريتي وقد قدّم بوساطته تعبيرًا عن الأعمال والنّعيم والجحيم فيقول:

وَإِذَا اللَّبيبُ غَدَا يُفَتِّشُ نَفسَهُ

نَطَقَت شَوَاهِدُهَا بِصِدقِ الحَالِ

إِنَّ النُّفوسَ وَدَائِعٌ وَرَهَائِنٌ

في مُدَّة الدُّنيَا لِوَشكِ زَوَالِ

فَالعَاقِلُ النِّحرِيرُ مَن وَافَى بِهَا

مَقرُونَةً بِصَوَالِحِ الأعمَالِ

وَالغَافِلُ المَغرُورُ مَن يُلقِي بِهَا

في قَعرِ مُظلِمَةِ الدُّجَى مِضلالُ

تَعِسَ أمرؤٌ يَسعَى وَيَجمَعُ جَاهِدًا

مَالاً سَيَترُكُهُ لَدَى التِّرحَالِ

(36) ينظر: شعر الزّهد في القرنين الثّاني والثّالِث الهجريين: 71.

وَإِذَا الفَتَى لَمْ يَدَّخِرْ لِمَعَادِهِ

زَادًا فَسَوفَ يَؤُولُ شَرَّ مَآلِ

فَاعمَل لِنَفسِكَ أَيُّها المَعْنَى بِهَا

عَمَلاً تَفُوزُ بِهِ مِنَ الأهوَالِ(37)

إنَّ الشَّاعِرَ في نَصِّهِ يدعو إلى الأعمال الصالحة الَّتِي يرى أنَّهَا سفينة للنّجاة، وهي الزّاد الَّذي يحمل المؤمن في رحلة الموت للقاء الحساب بين يدي الله تعالى، وإنَّ خلود الإنسان في الدّنيا إنَّمَا هو مجرّد طمع وطول أمل، والعيش في الملذّات والشّهوات لا طعم له لأنَّ خاتمته الموت الَّذِي يفضح غرور الإنسان بملذّاته وشهواته الفانية الَّتِي نهايتها العصيان والنّار الَّتِي وعد الله بها.

ومثال ذلك أيضًا ما نجده في نَصِّ محمد بن سعيد بن يحيى الواسطي (ت627هـ) داعيًا إلى الوعظ والإرشاد والتّذكير بعقاب الله وجبروته وبطشه فيقول:

يَغرُّ الفَتَى طُولُ السَّلامَةِ لاهِيًا

وَيَنسَى هُجُومَ المَوتِ مَع ظُلمَةِ القَبرِ

وَأهوَالَ مَا يَلقَى وَيَومَ حِسَابِهِ

إذا بَرَزَ الجَبَّارُ لِلفَصلِ وَالأَمرِ

وَصَيحَةَ أَهلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَالبُكَا

إذَا عَايَنُوا أهلَ المَفَازَةِ وَالغَفرِ

فَيَا رَبِّ وَفِّقنَا لِخَيرِ طَرِيقَةٍ

(37) قلائد الجمان: 4/ 212 – 213.

وَمُنّ بِمَا يُرضِيكَ يَا عَالِمَ السِّرِّ(38)

لقد عمد الشَّاعِرُ في نَصِّهِ إلى الإيجاز ، لأنَّ قصر المواعظ الَّتِي فيها زهد ودعوة إلى الخير أدخل إلى النّفسِ العصِيَّة وأدعى إلى قوَّة التأثير وأبقى للأثر في الخاطر، وهذا بدوره يضع خلجات نفسِيَّة وروحِيَّة أنتجها مشهد الموت والحساب والوقوف أمام الله وصرخات أهل النّار تجعل المتلقي يستكين إلى الزّهد ويخضع لنفحاته.

أمَّا ما يمثّل أقصى درجات الزّهد فهو التّصوّف القائم على "المبالغة والانصراف للدّين والانصراف عن كل ما يمُتُّ إلى هذه الدّنيا بصلة، ولذلك عزموا بالميل إلى الوحدة والابتعاد عن النّاس وما يشغلهم"(39) ، ومثال ذلك ما نجده في نص عبد الواحد بن إبراهيم بن الحسن أبي نصر، المعروف بابن الفقيه (ت636هـ)، الَّذِي يُعبّر من خلاله عن شعار وملمح صوفي، فيقول:

عِشْ خَامِلاً لا حَامِلاً

فِي رُتبَةِ ثقلِ الحَذَرْ

وَنَم وَلا تَنَمْ فَإنَّ

المُرتَقَى فِيهِ الخَطَرْ

فَالمَرءُ لا يَسقُطُ إلاَّ

إنْ عَلا وَإنْ ظَهَرْ

وَالرِّيحُ لا تَقلَعُ إلاَّ

مَا عَلا مِنَ الشَّجَرْ(40)

(38) قلائد الجمان: 6/ 88.
(39)الشعر العراقي في القرن السّادس الهجري: 216.
(40)الشعر العراقي في القرن السّادس الهجري: 216.

يدعو الشَّاعِرُ هُنا الإنسان أن يعيش خاملاً أو العيش الخامل هو ليس الخمول إجمالاً، إِنَّمَا هو رداء يرتديه الزّاهد العابد ليمنع غرور نفسه ويُؤدّبَ سجاياها وهو يفلسف لنا طريقة السّلوك الرّوحي الَّتِي تأبى على صاحبها أن يظهر أناه، إذ لا تزل قدم الزّاهد النّاسك العابد إلا إن علا وظهر أخذًا بالمقولة الصّوفِيَّة الَّتِي تقول إنَّ الظّهور يقصم الظّهور، ويشبه حال الزّلل والسّقوط النّاتج عن الظّهور بحال الرّيح الَّتِي تقتلع الشّجر، وهذه الفلسفة تنبع من رؤية روحِيَّة ترى أنَّ العابد إذا أظهر عبادته ونسكه أو زهده لا ينبغي له ذلك، لأنَّهُ يتناقض مع الفلسفة الروحيَّة الَّتِي يتبنّاها منهج الزّهد والتّصوّف، لأنَّهُ منهج انقطاع وعزلة في ترك ما بين يدي الخلق والذّهاب إلى ما بين يدي الحق، وهذا متأتٍّ من آثار الحياة الاجتِمَاعِيَّة الَّتِي ألقت بظلالها على المجتمع لا سيما الشَّاعِرُ.

وأهم الأسس والمعاني العميقة الَّتِي يتّكئ عليها المتصوّفة هو الثّقة بالله مع حب الفقر، لأنَّهُ أعلى درجات الزّهد الَّذِي يقتضي معانقته واختياره، لأنَّهُ الطّريق الَّذِي يبعدهم وينجيهم عن متاع الدّنيا والغرق في ملذّاتها وما ينتج عنه من رضا ربّاني ولطف خفي[41]، وخير دليل عن هذه الأسس ما نجده في نَصِّ عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز، أبي القاسم اللّخمي (ت643هـ)، إذ يقول:

الفَقرُ بَابٌ للمُرُوءَةِ والتُّقَى

وَالصَّبرِ وَالإيمَانِ إلاَّ مَنْ كُفِي

فَهُوَ الصَّبور المُؤمِنُ الوَرِعُ التّقِي

طُوبَى لَهُ قَد خُصَّ باللُّطفِ الخَفِي[42]

إنَّ نشوة الافتقار إلى الله لا تنجلي إلا في النّفوسِ الَّتِي صفت، والقلوب الَّتِي زكت، والضّمائر الَّتِي نجت، والأرواح الَّتِي علت، والهمم الَّتِي سمت، لأنَّ سبيل الوصول هو الوجد بالافتقار إلى الحق تعالى، فهو باب للمروءة والتّقى والصّبر والإيمان، وهذه العناصر إذا اجتمعت في نفس بلغت فيها منتهى الارتقاء وغاية النّقاء فلا يستوطنها بعد ذلك إلا الرّجاء، لأنَّهُ يعيش في بحبوحة اللّطف

(41) ينظر: اللّمع في التّصوّف: 72.
(42) قلائد الجمان: 2/ 297.

وعرصة اللّطف، وغاية ما يجلوه النَّص من مضامين روحِيَّة وفكرِيَّة ترسخ الدّعوة إلى السّمو الرّوحي والنّقاء الأخلاقي، مِمَّا قد يحيط المرء من آثار الحياة المتدنِّية الَّتِي تحبط وتبعد وتقصي سعادة المرء عن نفسه وقلبه.

وقوله أيضًا في أنَّ الفقر ينجي صاحبه من الجشع والكبر، وإنَّهُ طرق الاتّصال الرّوحي بالذّات الإلهِيَّة:

صَبرًا عَلَى الفَقرِ لِتَحظَى بِمَا

قَد نَالَهُ خَيرُ رِجَالِ السَّلَفْ

فَالفَقرُ خَيرٌ مِن غِنًى مُقتِرٍ

أدَّى إلَى الكِبَرِ وَقُبحِ الصَّلَفْ(43)

إنَّ مفهوم الفقر في النَّصّ لا يعكِسُ تمثّلات الفقر المادّي الدّنيوي، إنَّمَا هُوَ قيمة مثلى تتجلّى فيها أنوارٌ ربّانِيَّة تفيض سعادة على الأنفس، لأنَّ الطّريق إلى أنوار الحق مرهون بالافتقار إليه والغنى به، فالصّبر عليه صبرٌ غايته العز لا الذّل والسّعادة لا الشّقاء الدّنيوي، والوصول لا الخمول، فهو خير من غنى يورث التّكبّر والاستعلاء، لأنَّ هذا الفقر كبح جماح الشّهوات الَّتِي تستعبد إنسَانِيَّة الإنسان وتحول بينه وبين كمالات الخير وهو رياضة للنّفسِ لمن أراد التّجلّي وبلوغ الأنوار اللّطيفة فلا سبيل لها إلا به، فهذه كلّها خلجات روحيَّة أوردها الشَّاعِرُ ليستلهم من خلالها الابتعاد عن المغريات.

وإنَّ الصّوفي لا يصلُ إلى الحقيقة وهدفه المنشود "إلا بمجهود شاق وطويل، يرتكز على إماتة الرّغبات، وكسر شره النّفس، وألوان من الرّياضة رسمها الصّوفيَّة ونظموها وسموها طريقًا"(44) ، وخير مثال على هذا الغرض ما نلحظه في نَصّ وسوان بن منصور بن وسوان أبي يعقوب الكردي الهذباني الَّذِي يلوح فيه على ترك رغبات الدّنيا فيقول:

(43) قلائد الجمان: 2/ 297.

(44) قلائد الجمان: 2/ 297.

مَالِي سَكَنتُ إلى الدُّنيَا وَزِينَتِهَا

وَقَد عَلِمتُ يَقِينًا أنَّهَا نُغَصُ

وُعُودُهَا كَذِبٌ وَجِدُّهَا لَعِبٌ

وَرَوحُهَا نَصَبٌ وَعَذبُهَا نُغُصُ

كَيفَ التَّخَلُّصُ مِن أَشرَاكِ زِينَتِهَا

وَالحِرصُ يَزدَادُ بي وَالعُمرُ يَنتَقِصُ(45)

يستهل النَّصَّ بمفتاح السّؤال ليطرق على أبواب فضاء من التّأمّل الَّذِي يكسر شره النّفسِ، ويُحقّق غاية اليقين الَّتِي تقود إلى الرّضا بالاطمئنان للإفصاح عن حقيقة الدّنيا الَّتِي ما تلبث أن تكون وعودها كاذبة والجدُّ فيها لعبًا، والرّاحةُ فيها تعبًا، وحلوها مرًّا، ويسأل النّص بأسلوب زهدي يُحيل على كيفِيَّة الخلاص من فخاخ الدّنيا وأشراكها وما يعتري النّفس من ازدياد الحرص على الرّغم من فنائها، فسعى الشَّاعِرُ إلى تقديم إخبار متلازم تكتنفها ألوان من الرّياضة الرّوحِيَّة الَّتِي تسعى إلى تحطيم الرّغبة بالجهد الشّاق.

وأهم خصائص شعر التّصوّف في هذا العصر هو أنَّ "هؤلاء الشّعراء لم يعتنقوا مبادئ الصّوفِيَّة، ولا صاروا من جملة المريدين والأتباع لشيوخ التّصوّف وأقطابه، لذلك يغلب على شعر هؤلاء روح التّصوّف ونفحاته دون غموضه واصطلاحاته، فتُحِسُّ بخشوع ورهبة تجاه فنائهم وتعلّقهم بالخالق، ولا تملك نفسك من الإعجاب بهذا الحب الَّذِي ملك عليهم جوارحهم(46)، وجعلهم يطلبون المغفرة، وخير الأمثلة عن التّسليم للذّاتِ الإلهِيَّة والرّهبة الَّتِي تصوّرُ حالة الفناءِ والضّعف نلحظها في نَصّ هبة الله بن علي بن عيسى، أبي المعالي بن أبي القاسم النيلي (ت620هـ) قائلاً:

إِلَهِي لَيسَ لِي جَلَدٌ فَأَقوَى

(45) قلائد الجمان: 7/ 194.

(46) الشعر العراقي في القرن السّادس الهجري: 218.

عَلَى نَارِ الجَحِيمِ وَلا أُطِيقُ

وَإِلاَّ تَعفُ عَنِّى أو تُجِرنِى

فَإِنِّى بحَارِ رَدى غَرِيقُ(47)

هذا النَّصُّ بوح خفي لطيف ومناجاة للبارئ في بيان ضعف الإنسان وذلّهِ وانكساره وعدم قدرته على احتيال ما يؤول إليه بصره وحاله في نار الجحيم، إلا أنَّ تحلَّ الرّحمة الإلهِيَّة، فتنشي النّفوس بالعفو وتلتمس الإجارة من لظى جهنّم، وما السّبيل إلى ذلك إلا قصد أسباب الرّحمة والسّعي وراء لطفها وفيوضها وآثارها الَّتِي تشفع للمرء فتقيه النّار، وبعد أن قدّم مناجاة العفو والرّحمة مُستجيرًا ومفتقرًا، فإنَّ هذه النّصوص الزّهدِيَّة وما جاء على شاكلتها ما هي إلا أثر من آثار الحياة الاجتِمَاعِيَّة الَّتِي سادت أبان تلك الحقبة، كصحوة غامرة على اللّهو واللّعب، والتّمسّك بالذّات الإلهِيَّة الَّتِي تخلّصه من براثن الرّدى ونار جهنّم، فكانت دعوة عميقة مترامية الأطراف.

وكذلك في قول أحمد بن عبد الغني بن أحمد اللّخمي القُطرسي (ت603هـ)

وَاضَيعَتَا إِن لَمْ تَجُدْ

لي خَالِقِي بِالعَفوِ عَنِّي

أَذهَبتُ عَمرِي فِي الهُذَاءِ

وَبِالتَّرَجِّي وَالتَّمَنِّي

وَأَتَيتُ أَطلُبُ عَفوَهُ

فَالذَّنبُ وَالتَّقصِيرُ مِنِّي(48)

(47) قلائد الجمان: 7/ 148.

(48) قلائد الجمان: 1/ 155.

النّص من مستهله حسرة تفيض بالألم، إلا أنَّهُ لا يقنط من روح الله ويلتمس العفو منه مع الإقرار بتقصير المرء وعظم ذنبه وضياع عمره في الأوهام والشّهوات والملذّات بما يورث الحسرة والنّدم الَّذِي يؤدّي إلى نوع من الصّراع النّفسي المتأزّم الَّذِي يرتجى منه الخلاص والخُلوص إلى نتيجة يقين قاطعة في بيان حقيقة النّفس البشرِيَّة الَّتِي تغرق في خضم الشّهوات والملذّات ليفضي إلى مسارب متعدّدة تتحد في غاية واحدة، وهي بيان حقيقة ما عليه النفس من الجموح نحو متاهات سحيقة أفرزتها الحياة الاجتِمَاعِيَّة فكانت اثرًا متلازمًا من آثارها الهدّامة الَّتِي تتمثّل باللّهو والمغريات وآثارها البنّاءة الَّتِي تستهل بالزّهد والتّصوّف.

ومما ينماز به شعر التّصوّف كإحدى درجات الزّهد وكأثر من آثار الحياة الاجتِمَاعِيَّة الَّتِي أنتجها تيّار اللّهو والمجون هو أنَّهُ يَشكّلُ مظهرًا دينِيًّا وروحِيًّا تقوم عليه حياة المتصوّفة في الإسلام، وإنَّهُ المرآة الَّتِي انعكست عليها الحياة الروحِيَّة والإسلامِيَّة في أجلى مظاهرها والّتي أفضت إلى طلب التّرغيب والتّرهيب وذكر الله والتّوكّل عليه طلبًا لرضاه والتّسليم له[49]، ومثال ذلك ما نجده في نَصّ أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبي حامد السّاوي خطيب همذان طالبًا العفو والمغفرة من الله، إذ يقول:

أَتَيتُكَ مُستَجِيرًا مُستَعِيذًا

بِعَفوِكَ مِن عَذَابِكَ يَا إِلَهِي

فَقَد أَوقَرتُ ظَهرِي بِالخَطَايَا

وَقَد أَكثَرتُ غِشيَانَ المَلاهِي

فَإِن لَم تَعفُ رَبِّي عَن ذُنُوبِي

رَجَائِي حَبلُهُ يَارَبِّ وَاهِي

فَكَم عَاصٍ عَفَوتَ الذَّنبَ عَنهُ

(49) ينظر: الثّورة الرّوحِيَّة في الإسلام: 71.

وَقُلتَ لَهُ عَصَانِي وَهُوَ سَاهِي(50)

إنَّ حالة الانكسار والافتقار إلى الله الَّتِي يحملها النَّصُّ مطالبًا بعفوه ومغفرته متأتِّية وناتجة عن حالة الإقرار بأنَّ اللّهو والخطايا قد أغرقته وجعلته صريع القوى نفسِيًّا وعقلِيًّا، ممَّا دفعه إلى طلب الإجارة والعفو من الله تعالى من خلال مناجاة صريحة نشرها في أرجاء نَصِّهِ متمثّلة بقوله(بعفوك، تعف، رجائي، عفوت) كلّها محملة بمحمولات دلالِيَّة تظهر طلب رضا الله والتّسليم له في الصّفح، بعد أن عرض حالة التّرهيب الَّتِي ينتجها العذاب والألم النّاتج عن الخطايا، وهذا ناتج عن تصوّف وزهد عميقين أفضته الحياة الاجتِمَاعِيَّة.

ومن أمثِلَة الفرار إلى الله ، والتّسليم له نجده في نَصِّ نصر الله بن محمد بن بابا، أبي الفتح بن أبي بكر الأسعردي (ت574هـ) الَّذِي يبدو منكسرًا طالبًا العفو والرضا، إذ يقول:

يَا إِلَهِي عُبَيدُكَ البَائِسُ الأَضعَـ

ـفُ يَبغِي إِلَيكَ مِنكَ فِرَارًا

غَيرَ أَنِّي تَخِذتُ وَجهَكَ يَا مَو

لايَ مِن حَوادِثِ الدَّهرِ جَارَا

وَمُقِر بِذَنبِهِ لَيسَ بِالجَا

حِدِ مَا قَدَّمَت يَدَاهُ اختِيَارَا

لَم أَجِد لِي مِنَ الأَنَامِ مُجِيرًا

فَاستَخَرتُ المُهَيمِنَ القَّهَّارَا

يَا إِلَهِي وَأَنتَ أَكرَمُ مَن سَا

قَت إِلَينَا القَرَائِحُ الأَشعَارَا

(50) قلائد الجمان: 1/ 176.

إن أَكُن مُذنِبًا هَجُومًا فَمَا زِلـ

ـتَ لِمَن تَابَ رَاحِمًا غَفَّارَا(51)

قد سعى الشَّاعِرُ في النّصِ إلى طلب المغفرة من الله طمعًا في الثّواب وخوفًا من العقاب، ونطلب الاستقامة بعد أن يخلص بدنياه وآخرته ويهزم رغبات الدّنيا ويطهّر نفسه وذلك بالفرار إلى الله والتّسليم له، وهذه الحصيلة إن تحقّقت (أي العفو) فقد جاءت حصيلة كفاحه وجهاده النفسي وقهر وترويض البدن نوازعه وميوله النَّفسِيَّة والعقلِيَّة والجسدِيَّة جميعها، فجاء النَّصُّ بما يحمله من مضامين نابعًا من هاجس الوله والشّوق والوجد لله تعالى، لأنَّهُ سنده الوحيد الَّذِي يخلّصه من عاديات الدّهر وشرور النّاس متكئًا في ذلك على اسم الله تعالى الكريم الَّذِي هو رمز العطاء والفيض الإلهي، وفي ختام نَصِّهِ يُفصِحُ عن التّوبَةِ النّصوحة تمامًا مع طلب القبول من الله تعالى.

الخاتمة:

1. مثل شعر التوجيه والارشاد الديني نمطاً شعرياً قويماً بكل ما يحمله من أنماط خطابية شعرية دلت على عاطفة متقدة صـــادقة غير متكلفة تمثلت بعدد من النوازع النفســية والمشـــاعر الانسـانية، فهي تحمل إحسـاسًـا صـادقًا معبرًا عن كل ما يحيط بالمرء من ظروف تجعله في بعض الاحيان أمام مفترق طرق لكنه يسعى في كل حال إلى أفضل النجدين .
2. شكل خطاب التوجيه والإرشاد الشعري ملامح مهمة تدل في مجملها على النصيحة والحكمة والزهد والتصوف ، وبفضل هذه الأنماط استطاع الشعراء أن يقدموا للمتلقين مشاهد توجيهية يفيدون فيها في حياتهم، وهي نتاج الثقافة التراكمية التي أفرزتها الحياة.
3. لعل هذا النوع من الشـعر جاء بمثابة رسـائل منبثقة عن تجارب عاشـها الشـعراء ومروا بها ففهموا فهما صحيحا مما جعلهم يبثون صورها وأنماطها صورا شعرية صادقة ومعبرة.
4. يتضح من خلال النصوص الشعرية التي ألفتنا في شعر التوجيه والارشاد أن المجتمع الذي يعد الشـاعر طرفا مهما فيه اتصـف بعدد جمٍّ من القيم والخصـال الحميدة، فيما لم تخل هناك

(51) قلائد الجمان: 1/ 176.

من وجود بعض الصـــفات الذميمة لذلك رأى الشـــاعر لزاماً عليه أن يأخذ دوره ليحث ويقوم بدور المرشد الموجه نحو ما يضمن له العيش بسلام وأمان.

5. أما الزهد والتصوف فقد جاء تعبيرا عن القيم الروحية التي قرت في نقوس الكثير من الشعراء لاسيما الشعراء العباسيين، وكانت ذات طابع شعري ينم عن ايمان عميق وروح نقية امتازت بالصدق وطلب الاخرة والعزوف عن لهو الدنيا.

المصادر والمراجع

- الأخلاق والسير في مداواة النفوس، أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم (ت456هـــ)، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، د.ت.
- الإخوانيات في شعر العصر العباسي الأول، رمضان صالح عباد، رسالة ماجستير، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، 1989.
- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت450هـ)، ط16، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1979.
- الأسس الجمالية في النقد الأدبي، د. عز الدين إسماعيل،ط3, دار الفكر، بيروت، لبنان، 1969.
- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد بدوي، ط1 مكتبة النهضة, القاهرة, مصر , 1984
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت816هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983.
- الثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا عفيفي، ط1، دار المعارف، مصر، 1963.
- الحركة الأدبية في مجالس هارون الرشـيد، د. محمود بن سـعود بن عبد العزيز الحلبي، ط1، الدار العَرَبِيَّة للموسـوعات بيروت، لبنان، 2008.
- الحكمة في الشعر العربي قبل الإسلام، إبراهيم علي شكر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1987.
- شعر الزهد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رافع أسعد عبد الحليم، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1975.
- الشـعر العراقي في القرن السـادس الهجري، د. مزهر السـوداني، منشـورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشـيد، بغداد، 1980.
- الشعر في واسط في العصر العباسي، مشحن حردان مظلوم الدليمي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1993.
- القصيدة الأندلسية في القرن الثامن، عبد الحميد الهرامة، ط1، تطوان، 1996.
- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـــ(عقود الجمان في شعراء هذا الزمان) كمال الدين أبو البركات المبارك بن الشعار الموصلي (ت65هـ) تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- اللمع في التصوف، أبو نصر السراج الطوسي (ت378هـــ)، تحقيق: طه عبد الباقي وعبد الحليم محمود، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1960.
- مبادئ الأخلاق، د. ماهر كامل عبد المجيد، ط1، القاهرة، مصر، 1974.
- المرأة في أدب العصـر العباسـي، د. واجدة عبد الله الأطرقجي، منشـورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشـيد للنشـر، 1981.
- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، الشيخين أحمد الإسكندري ومصطفى عناني، ط18، دار المعارف، مصر، د.ت.